Journal of Scientific and Human Dimensions
مجلة الأبعاد العلمية والإنسانية
ISSN: 3106-1702
Volume 2, Issue 3, 2026 Pages: 924-938
Journal homepage: https://jshd.com.ly/index.php/jshd/en

Vowel Harmony in Qurʾānic Readings: Between Phonetic Explanation and Dialectal Variation

Dr. Abdul Monem Muhammad Abdul Qadir Ali*
Libyan Authority for Scientific Research, Tripoli, Libya

الإتباع الحركي في القراءات القرآنية بين التوجيه الصوتي والتنوع اللهجي

د . عبد المنعم امحمد عبد القادر علي*
الهيئة الليبية للبحث العلمي، طرابلس، ليبيا

*Corresponding author: a5o4bid2@gmail.com

Received: June 26, 2026	Accepted: August 25, 2026	Published: September 14, 2026

Copyright: © 2026 by the authors. This article is an open-access article distributed under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY) license (https://creativecommons.org/licenses/by/4.0/).

Abstract:
This study examines vocalic assimilation (al-Ittibāʿ al-Ḥarakī) in the Qur'anic readings as one of the most prominent phonological phenomena reflecting the diversity of Arabic dialects and their influence on Qur'anic recitation. It also highlights the role of this phenomenon in facilitating pronunciation within the Arabic phonological system. The study aims to define vocalic assimilation, explain its phonetic foundations, identify its major manifestations in the Qur'anic readings, analyze the explanations provided by grammarians, linguists, and Qur'anic readers, and clarify its relationship to the variation among Arabic dialects.
The study adopts a descriptive-analytical approach by collecting examples of vocalic assimilation from the classical works on Qur'anic readings, Qur'anic syntax, Arabic grammar, and linguistics, and analyzing them in light of both classical and modern phonological studies. It also compares the views of early scholars regarding the phonetic and dialectal motivations underlying this phenomenon.
The study concludes that vocalic assimilation constitutes a phonological process aimed at achieving articulatory ease and reducing the effort required in speech production. The diversity of its patterns in the Qur'anic readings is closely associated with the authentic Arabic dialects in which the Qur'an was revealed. Furthermore, the findings demonstrate that early Arab scholars paid considerable attention to this phenomenon, interpreting it through the principles of phonetic harmony and vowel assimilation while linking numerous reading variants to their dialectal origins. This confirms the authenticity of the Qur'anic readings and underscores their importance in preserving the phonological characteristics of Classical Arabic dialects. The study also highlights their significant contribution to Arabic phonological and linguistic scholarship and to understanding the precision of the Arab linguistic heritage in explaining and analyzing phonological phenomena.

Keywords: Vocalic Assimilation; Qur'anic Readings; Phonology; Arabic Dialects; Linguistic Interpretation; Phonetic Harmony.

الملخص
يتناول هذا البحث ظاهرة الإتباع الحركي في القراءات القرآنية، بوصفها إحدى الظواهر الصوتية التي تعكس تنوع اللهجات العربية وأثرها في اختلاف الأداء القرائي، وتبرز جانبًا من التيسير الصوتي الذي راعته العربية في نظامها اللغوي.

ويهدف البحث إلى الكشف عن مفهوم الإتباع الحركي، وبيان أسسه الصوتية، ورصد أبرز صوره الواردة في القراءات القرآنية، مع تتبع توجيهات النحاة واللغويين والقراء لهذه الظاهرة، وبيان علاقتها باختلاف اللهجات العربية.
واعتمد البحث المنهج الوصفي التحليلي، من خلال استقراء النصوص المتعلقة بالإتباع الحركي في كتب القراءات، وإعراب القرآن، وكتب اللغة والنحو، ثم تحليلها في ضوء الدراسات الصوتية القديمة والحديثة، مع الموازنة بين آراء العلماء في تفسير هذه الظاهرة وبيان دوافعها الصوتية واللهجية.
ولقد خلص البحث إلى أن "الإتباع الحركي" يعد مظهراً من مظاهر الانسجام الصوتي، الذي يهدف إلى تيسير النطق والحد من الجهد العضلي أثناء الأداء اللفظي، كما أشار إلى أن تباين صوره في القراءات القرآنية يرتبط ارتباطاً وثيقاً بتعدد اللهجات العربية الفصيحة التي نزل بها القرآن الكريم.
كما أظهرت الدراسة أن علماء العربية أولوا هذه الظاهرة عناية كبيرة، ففسروها في ضوء المماثلة الصوتية والمجانسة بين الحركات، وربطوا كثيرًا من وجوه القراءات بالأصول اللهجية للقبائل العربية، وهو ما يؤكد أصالة القراءات القرآنية، ويبرز قيمتها في حفظ الخصائص الصوتية للهجات العربية الفصيحة، فضلاً عن إسهامها في إثراء الدرس الصوتي واللغوي، وإبراز دقة التراث العربي في تفسير الظواهر الصوتية وتحليلها.

الكلمات المفتاحية :الإتباع الحركي، القراءات القرآنية، علم الأصوات، اللهجات العربية، التوجيه اللغوي، الانسجام الصوتي.

المقدمة

تُشكّل القراءات القرآنية مادة أساسية في دراسة العربية؛ لما تشتمل عليه من وجوه أداء لغوي تكشف عن جانب من التنوع الذي عرفته العربية في أصواتها وبنيتها وتراكيبها. وقد أفاد علماء العربية من هذه القراءات في تفسير عدد من الظواهر اللغوية وتقعيدها، لما تمتاز به من ثبوت الرواية وتنوع الشواهد ودقة الأداء. ومن الظواهر الصوتية التي تستوقف الباحث في هذا المجال ظاهرة الإتباع الحركي، حيث تتجه حركة صوتية إلى التأثر بما يجاورها، بما يؤدي في بعض المواضع إلى تقارب الحركات وتيسير الانتقال بينها.

وقد حظيت هذه الظاهرة باهتمام واضح في كتب القراءات واللغة والنحو، فتعددت تفسيرات العلماء لها، وتنوعت عباراتهم في بيان أسبابها وربطها بطرائق النطق عند العرب. كما ارتبطت بعض صورها بلهجات قبائل عربية معينة، الأمر الذي يجعل القراءات القرآنية مجالًا مناسبًا للكشف عن الصلة بين الظاهرة الصوتية وخصائص الأداء اللهجي. ومن هذا المنطلق، يسعى البحث إلى دراسة الإتباع الحركي في القراءات القرآنية من خلال الجمع بين ما قدمه التراث العربي من تفسيرات، وما يتيحه التحليل الصوتي من إمكانات لفهم هذه الظاهرة.

تكمن إشكالية البحث في تشتت المادة العلمية المتعلقة بظاهرة «الإتباع الحركي» بين طيات كتب القراءات، وإعراب القرآن، وعلوم اللغة والنحو؛ إذ يفتقر المكتبة العربية ـــ في حدود ما استقصاه الباحث ـــ إلى دراسة جامعة تلمُّ شتات مظاهر هذه الظاهرة، وتضعها في إطار صوتي تحليلي يزاوج بين التفسير التراثي الرصين والتحليل اللساني الحديث، مع استجلاء أثر اللهجات العربية في توجيه هذه الظاهرة وتأصيلها.

وعليه، كيف يتسنى دراسة ظاهرة الإتباع الحركي في القراءات القرآنية دراسةً صوتيةً تحليلية، تجمع شتات مادتها العلمية المتناثرة في أمهات كتب القراءات، وإعراب القرآن، واللغة، والنحو، وتربط بين التفسير التراثي والتحليل اللساني الحديث، مع تبيان دور اللهجات العربية في توجيه مسارات هذه الظاهرة؟

ويهدف البحث إلى بيان مفهوم الإتباع الحركي وأصوله الصوتية، ورصد صوره في القراءات القرآنية، والكشف عن أثر اللهجات العربية في اختلافها، وتحليل توجيهات علماء العربية والقراء لها، وبيان ما تحققه من انسجام صوتي وتيسير في الأداء.

وتتجلى أهمية البحث في إبراز القيمة اللغوية للقراءات القرآنية بوصفها سجلًا موثوقًا للهجات العربية، وإظهار سبق علماء العربية في تفسير الظواهر الصوتية، وربط جهودهم بما انتهت إليه الدراسات اللسانية الحديثة، بما يسهم في إثراء الدراسات القرآنية والصوتية.

واعتمد البحث المنهج الوصفي التحليلي القائم على استقراء النصوص المتعلقة بالإتباع الحركي في مصادر القراءات واللغة، ثم تحليلها في ضوء المعطيات الصوتية القديمة والحديثة، مع الإفادة من المنهج المقارن عند عرض اختلاف اللهجات وآراء العلماء في تفسير الظاهرة.

وفيما يتعلق بالدراسات السابقة، تبرز أعمالٌ مرجعيةٌ في هذا الميدان، منها كتاب "اللهجات العربية في القراءات القرآنية" لعبدة الراجحي، وكتاب "القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث" لعبد الصبور شاهين؛ إذ أسهمت هذه المؤلفات في تأصيل العلاقة الجدلية بين القراءات واللهجات العربية. ومع ذلك، فقد خلت تلك الدراسات من معالجةٍ مستقلةٍ لظاهرة "الإتباع الحركي" بشكلٍ يستوعب مظاهرها ويُقدم لها تفسيراً صوتياً تحليلياً دقيقاً.

وعليه، تكتسب هذه الدراسة قيمتها العلمية من تركيزها على الإتباع الحركي بوصفه ظاهرةً صوتيةً مستقلةً، تزاوج بين المادة التراثية والتحليل اللساني، وتُجلي أثر اللهجات العربية في توجيه القراءات القرآنية. وإذا كان البحث قد استند إلى منهجية الراجحي في تبيان الصلة بين القراءات والتنوع اللهجي، واستفاد من إطار شاهين في توظيف المناهج اللسانية الحديثة لتفسير الظواهر القرائية، فإنه ينفرد بتخصيص "الإتباع الحركي" بالدراسة والتحليل، عبر تصنيف شواهده وفقاً لمواضع ورودها، ومن ثم إخضاعها للتحليل الصوتي في سياق علاقتها بالتنوع اللهجي.

المبحث الأول : الإتباع الحركي في العربية (المفهوم والأساس الصوتي)

يمثل الإتباع الحركي إحدى الظواهر الصوتية البارزة في العربية، وقد استأثرت بعناية اللغويين والقراء منذ وقت مبكر؛ لما لها من أثر في تحقيق الانسجام بين الحركات وتيسير الأداء الصوتي ، وقد حفظت القراءات القرآنية جانبًا مهمًا من هذه الظاهرة، إذ نقلت وجوهًا متعددة من الأداء تعكس اختلاف البيئات اللغوية العربية، الأمر الذي جعلها ميدانًا خصبًا لدراسة العلاقة بين التعليل الصوتي والتنوع اللهجي ، ومن ثم فإن الوقوف على مفهوم الإتباع الحركي وأصوله النظرية يمثل مدخلًا ضروريًا لفهم توجيه هذه الظاهرة في القراءات القرآنية.

المطلب الأول : مفهوم الإتباع الحركي

الإتباع أن تتبع الكلمةُ الكلمةَ على وزنها ورويّها إشباعًا وتأكيدًا،(ابن فارس ، 1977 م ، ص 270 ، السيوطي ، 1958م،ج 1 ص415) ، كقولهم : حسن بسن ، فهما على وزن واحد ، ورويّهما نون مقيَّدة ، وعدَّه الثعالبي (429 ه) من سنن العرب في كلامها ، (الثعالبي ، 1954م، ص 379) ، ويُفهم من هذا التعريف أن الإتباع عند القدماء يقوم على مبدأ المشابهة بين عناصر متجاورة، سواء أكانت المشابهة في الوزن أم في الصوت، وهو ما يفتح المجال للنظر في الإتباع الحركي بوصفه صورة خاصة من صور التأثر الصوتي.

ويظهر من مجموع هذه التعريفات أن عددًا من اللغويين القدماء ربطوا الإتباع بالمشاكلة والمجانسة بين العناصر المتجاورة، ولم يقف تصورهم عند التشابه الشكلي، بل اتصل كذلك بما يطرأ على الأداء من تغير يحقق التخفيف والانسجام ، وإن لم يصوغوه في إطار نظرية صوتية مستقلة، إذ انصرف اهتمامهم إلى بيان أثره في انسجام البنية الصوتية للكلمة وتحقيق خفة النطق. ولذلك لم يقتصر مفهوم الإتباع عندهم على مجرد التشابه الشكلي، بل تجاوزه إلى ملاحظة العلاقات بين الحركات وما يترتب عليها من تغير في الأداء.

يذهبُ طائفةٌ من الباحثين إلى أنَّ ظاهرة «الإتباع» ترتبطُ ارتباطاً وثيقاً بدواعي المماثلة والتقريب الصوتي؛ إذ يُعدُّ تأثيرُ الحركة المجاورة وسيلةً فاعلةً لتحقيق الخفة وتخفيف الجهد العضلي أثناء العملية النطقية (مرعي الخليل، 1993م، ص13؛ حسام الدين، 2000م، ص179). وتُعرف هذه الظاهرة بأنها انسجامٌ بين الحركات المتباينة في الكلمة الواحدة أو في كلمتين متجاورتين، حيث تؤثر إحدى الحركات في نظيرتها المجاورة لها؛ سعياً وراء التخفيف، وتجنباً للجهد المبذول في الانتقال من مخرج حركة إلى آخر، كالانتقال من الضم إلى الكسر أو الفتح. ويُعدُّ الإتباع من الخصائص الملازمة للبيئة البدوية؛ حيث مال أهلها إلى تقريب الأصوات بعضها من بعض؛ تحقيقاً للتشاكل والانسجام الصوتي، بما يُمكّن اللسان من أداء الحرفين المتجاورين بجهدٍ حركيٍّ موحد (الجندي، 1978م، ج1، ص273).

يفضي هذا التفسير إلى مقاربة ظاهرة "الإتباع" بوصفها عملية صوتية، تتجه فيها حركة ما نحو التماهي مع حركة أخرى؛ مما يجعل التحول الحركي رهيناً ببيئة صوتية محددة، لا مجرد تباين في الرواية. وتُظهر تعليلات اللغويين أن الدافع الجوهري للإتباع يكمن في تحقيق الانسجام الحركي بين الأصوات المتجاورة، وهو ما يفسر شيوع استخدامهم مصطلحات من قبيل: التخفيف، والمجانسة، والمشاكلة. وعلى الرغم من تباين هذه المصطلحات في مبناها عن نظيراتها في الدرس الصوتي الحديث، فإنها تلتقي معه في تأويل الظاهرة بوصفها تجلياً من تجليات تقليل الجهد العضلي، وتحقيق الاقتصاد في الحركة أثناء النطق.

أشار المطلبي إلى أنَّ تفاوت اللهجات في ظاهرة «الإتباع» يرتبط -وفقاً لبعض التفسيرات التراثية- بطبيعة الأداء الصوتي؛ إذ تميل اللهجات التي تتسم بسرعة الأداء إلى الإتباع والمجانسة، وقد استشهد في ذلك بلهجتي تميم وأهل نجد ، وفي هذا السياق، نلحظ أنَّ اللغويين القدماء قد رصدوا بدقة ملاحظاتهم الصوتية حول ظاهرة الإتباع، وأشاروا إلى التباين اللهجي فيها؛ حيث تختلف اللهجات في درجة ميلها إلى هذه الظاهرة بناءً على سرعة الأداء الصوتي، فبينما تسمح اللهجات التي تتسم بالبطء والتأني في نطق الأصوات بانتقال اللسان من الضم إلى الكسر، تجنح اللهجات التي تتسم بالسرعة في الأداء العام إلى الإتباع والمجانسة، كما هو الحال في لهجتي تميم وأهل نجد (المطلبي، 1984م، ص 183).

ولا يقف هذا التفاوت عند حدود الأداء الصوتي، بل يمتد إلى اختلاف البيئات اللغوية نفسها؛ إذ لم تكن القبائل العربية سواءً في الأخذ بالإتباع، بل تفاوتت في درجة الميل إليه تبعًا لخصائصها الصوتية. ومن هنا اكتسبت القراءات القرآنية أهمية خاصة؛ لأنها حفظت هذا التنوع، وأبقت على كثير من الظواهر اللهجية في إطار الأداء القرآني المتواتر.

ويتبين مما سبق أن الإتباع الحركي يقوم على ركيزتين متلازمتين؛ تتمثل أولاهما في الدافع الصوتي القائم على تحقيق الانسجام بين الحركات، بينما تتمثل الثانية في اختلاف البيئات اللهجية في مدى الأخذ بهذا الأسلوب. ومن ثم فإن فهم تطبيقات الإتباع في القراءات القرآنية يقتضي الانتقال من الجانب النظري إلى دراسة صوره العملية في الأداء القرآني، وهو ما يتناوله المطلب الآتي.

المطلب الثاني : الأساس الصوتي للإتباع الحركي وأثر التنوع اللهجي

من خلال ما توفر لي من مادة تصور اللهجات العربية في كتب إعراب القرآن ، نلحظ صور الإتباع بالشكل الآتي :

نقل النحاس عن أبي العباس محمد بن يزيد المبرد (ت 285 هـ) أن ناساً من بني بكر بن وائل يقولون "عليكِم" بكسر الكاف، كما يكسرون الهاء؛ قياساً على أنها مهموسة، وهي إضمار كما أن الهاء إضمار، وهذا غلط فاحش؛ لأن الكاف ليست مثل الهاء في الخفاء،(الأخفش ، 1985م،ج 1 ص 180)، وقد وصفها سيبويه بأنها "رديئة جداً"،(سيبويه ، 1988م ، ج 4 ص197) ، ومنع الزجاج ، الالتفات إلى هذه اللغة ووصفها بالشذوذ ؛ لأن الكاف حاجز حصين بين الياء والميم، فلا تُقلب كسرة ، (الزجاج ، 1988م ،ج

1ص 52)، وقد أُطلق على هذه الظاهرة اسم "الوكم"، وهي كذلك عند ربيعة، (النحاس، 1988م، ج 1ص 239)؛ إذ يقولون: "منهِم"، فيتبعونها الكسرة، ولم يكن المسكّن عندهم حاجزاً حصيناً.

ومن ذلك إشباع الكسرة وضم الهاء في حركة الضمير المتصل، فهي لغات لبعض العرب، (سيبويه ، 1988م ،ج 4ص 197) ، ففي إعراب قوله تعالى: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ (الفاتحة ، 7) ، روى الزجاج في "عليهم" ضم الهاء وكسرها، وقال: "وعلى هاتين اللغتين معظم القراء، ويجوز (عليهمو) بالواو، والأصل في هذه الهاء في قولك: ضربتهو يا فتى، ومررت بهو يا فتى، أن يتكلم بها في الأصل بواو؛ لأن الهاء ليست بحاجز حصين... وقد قُرئ ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ (القصص ، 82)، و(بهو وبدارهو الأرض) من قراءة أهل الحجاز، (الزجاج ، 1988م ،ج 1ص 50 ، سيبويه ، 1988م ،ج 4ص 195)، ومن جاورهم من أهل اليمن ، (أبوحيان الأندلسي، 1998م،ج 2ص 921)؛ فأهل المدينة ومكة يصلون الميم بواو في اللفظ، فيقولون: "عليهمو"؛ لأن الواو علامة الجمع عندهم، ومن حذف الواو فإنه حذفها اختصاراً ، (ابن خالويه ، د ت ،ص 43) .

ووجود الواو بعد الهاء لخفاء " الهاء، وذلك أنَّ الهاء تخرج من أقصى الحلق ، والواو بعد الهاء أخرجتها من الخفاء إلى الإبانة، فلهذا زيدت، وتسقط في الوقف ولو كانت الهاء حاجزًا حصينًا ما زيدت الواو عليها (الزجاج، 1988م ، ج1ص 50) .

قال الأخفش (215ه): ولا تكسر هذه الهاء، إلا أنْ تكون قبلها ياء ساكنة، أو حرف مكسور، وإنما يكسر بنو تميم ، فأما أهل الحجاز فإنهم يضمّون بعد الكسر ، وبعد الياء أيضًا، (الأخفش، 1985م،ج 1ص 178، الفارسي ، 1981م،ص 205)، وهي عند جماعة من المتأخرين لغة تميم وقيس (أبوحيان الأندلسي، 1998م،ج2ص 920)، ونسبت هذه اللغة إلى أسـد، (المقدسي ، 1349هـ ،ص200)، وهو معروف عند بني مالك، وهم بطن من بني أسد، (ابن هشام، 1998م،ج 2ص349)، قولهم : (يا أيُّهُ الرجلُ) بضم الهاء، وإجرائه مجرى الضمير، فحذفت ألفها، وضمَّت هاؤها إتباعًا وعليه قراءة ابن عامر: (أيُّه الساحر) (الزخرف،51) بضم الهاء في الوصل، وقد وصف الزجاج هذه اللغات قائلاً: وأجود اللغات ما في القرآن، وهو قوله : (عليه قائمًا) ،(آل عمران،75) ، والذي يليه في الجودة (عليهُ مالٌ) بالضم، ثمَّ يلي هذا (عليهي مالٌ) ثمَّ (عليهو مالٌ) بإثبات الواو، وهي أردأ الأربعة ، (الزجاج ، 1988م،ج 1ص51) ويستخلص من هذا الوصف :

1. أجود اللغات إبقاء حركة الضمير على ما هو عليه.
2. ضم الضمير من غير إشباع، وهي التالية في الجودة ، نسبها المبرد إلى اللغة الحجازية، (المبرد ، 1994م،ج 1ص175).
3. إشباع كسر الضمير حتى تصيرَ ياءً.
4. وهي الأردأ، إشباع الضمة حتى تصيرَ واوًا.

تُبين الشواهد المتقدمة أنَّ تفسير ظاهرة «الإتباع» لدى اللغويين العرب لم يرتكز على عاملٍ أحادي؛ بل تضافرت فيه العلل الصوتية القائمة على المشاكلة والتخفيف مع مراعاة التباين في الاستعمال اللهجي بين القبائل. ومن ثمَّ، يُعدُّ تنوع وجوه الأداء في هذا الباب نتاجاً لتفاعل العوامل الصوتية مع الخصائص اللهجية، وليس ضرباً من التباين العشوائي في الحركات. وتدل النصوص المأثورة على أنَّ اللغويين لم يعُدّوا الإتباع الحركي ظاهرةً عرضية، بل اعتبروه مظهراً أصيلاً من مظاهر النظام الصوتي للغة العربية؛ إذ ربطوا حدوثه بجملةٍ من العلل، منها المشاكلة بين الحركات، والميل إلى التخفيف، والحدّ من الجهد العضلي في التنقل بين أوضاع اللسان أثناء النطق. وتُبرهن هذه التعليلات على وعيٍ صوتي دقيق، وإن صِيغت في إطار المصطلحات التراثية التي سبقت نشأة علم الأصوات الحديث بقرونٍ عديدة.

ويلاحظ كذلك أن القدماء لم يقتصروا على تفسير الظاهرة من الناحية الصوتية، بل قرنوها بالاستعمال القبلي، فنسبوا كثيرًا من صور الإتباع إلى قبائل بعينها، كتميم وأسد وهوازن وربيعة، في حين قلَّت هذه الظاهرة في لهجات أخرى، ولا سيما لهجات الحجاز. ويؤكد هذا أن اختلاف اللهجات لم يكن منشئًا للإتباع، وإنما كان سببًا في تفاوت شيوعه بين القبائل العربية، وهو ما حفظته القراءات القرآنية في وجوه الأداء المختلفة.

ومن ثم فإن العلاقة بين التوجيه الصوتي والتنوع اللهجي ليست علاقة تعارض، وإنما علاقة تكامل؛ فالتوجيه الصوتي يبين العلة التي أدت إلى ظهور الظاهرة، في حين يفسر التنوع اللهجي اختلاف العرب في الأخذ بها. وهذا الفهم المتكامل يجنِّب الباحث الاقتصار على أحد التفسيرين وإغفال الآخر، ويجعل دراسة الإتباع الحركي أكثر انسجامًا مع طبيعة القراءات القرآنية بوصفها ناقلةً لأفصح وجوه العربية.

وإذا كان الإتباع الحركي قد استند في نشأته إلى دوافع صوتية، واتسع نطاقه باختلاف البيئات اللهجية، فإن تطبيقاته العملية تتجلى بوضوح في القراءات القرآنية، التي حفظت صورًا متعددة لهذه الظاهرة، وتنوعت فيها أساليب الأداء تبعًا لما ثبت بالرواية عن القراء. ومن هنا تنتقل الدراسة إلى استقراء أبرز صور الإتباع الحركي في القراءات وتحليلها في ضوء التوجيه الصوتي والتنوع اللهجي.

المبحث الثاني : صور الإتباع الحركي في القراءات القرآنية وتحليلها

المطلب الأول : الإتباع الحركي في الضمائر

يمثل الإتباع في الضمائر أحد المواضع البارزة التي تظهر فيها هذه الظاهرة في القراءات القرآنية، ولا سيما في الضمائر المتصلة التي تتأثر حركاتها بما يجاورها من أصوات وحركات، ويرجع ذلك إلى كثرة دوران الضمائر في الاستعمال، وما يترتب على اتصالها بالأفعال والأسماء والحروف من تغيرات صوتية تستهدف تحقيق الانسجام بين الحركات. وقد تنوعت وجوه الأداء في هذه المواضع، فظهرت صور متعددة من الكسر والضم والإشباع، واختلف اللغويون في توجيهها بين التعليل الصوتي وردها إلى اختلاف اللهجات العربية.

أولاً : **الإتباع في ضمير الجمع (عليهم) :**

وذكر النحَّاس خمس لغات في (عليهم) نسبها إلى القرّاء والمدن، وقرئ بها كلها ، وهي :

1. (أنعمت عليهمو) بضم الهاء وإثبات الواو ، قرأ بها ابن أبي اسحق .
2. (عليهمي) بكسر الهاء وإثبات الياء ، قراءة الحسن .
3. عليهمْ) بكسر الهاء وإسكان الميم ، قرأ بها أهل المدينة ، وهي لغة أهل نجد .
4. (عليهُمْ) بضم الهاء وإسكان الميم ، قرأ بها حمزة وأهل الكوفة .
5. (عليهمو) بكسر الهاء والواو ، قرأ بها الأعرج .

وأضاف قائلاً : " وحكي لغتان شاذتان وهما ضم الهاء والميم بغير واو (عليهُمُ) وكسرها بغير ياء (عليهِمِ) (النحاس ، 1988م ،ج 1ص174–175) ، وفي موضع آخر يذكر قراءة حمزة (عليهُمُ) بضمتين ، وعن الكسائي أنَّ (عليهِمْ) بكسر الهاء وإسكان الميم إنَّما كسرها أبو العلاء إتباعًا للياء ، لأنَّ الكسرة أخت الياء (النحاس ، 1988م،ج 4ص389) .

وصرَّح أبو حيَّان (745 هـ) بأنَّ بعض بني أسد يكسر الهاء في (عليهم) وهي لغة تميم ، و(عليهمو) لغة أهل الحجاز ومن حولهم من فصحاء اليمن(أبوحيان الأندلسي، 1998م،ج 2ص 921) .

تكشف وجوه الأداء الواردة في ضمير الجمع «عليهم» عن تعدد في معالجة الحركة داخل البنية الصوتية للضمير. فاختلاف حركة الهاء، وما يصاحبه في بعض الأوجه من إثبات الواو أو الياء أو حذفهما، يدل على أن البنية لم تكن بمنأى عن تأثير البيئة الصوتية المحيطة بها. وتظهر قيمة هذه الشواهد في أنها تجمع بين اختلاف الأداء من جهة، وبين التفسير الصوتي لهذا الاختلاف من جهة أخرى؛ إذ يمكن تفسير بعض هذه الأوجه بميل المتكلم إلى مجانسة الحركة للصوت المجاور وتحقيق قدر من السهولة في الانتقال بين العناصر الصوتية.

ومن ثم، لا ينبغي النظر إلى اختلاف صور «عليهم» على أنه اختلاف في أصل الضمير، وإنما هو اختلاف في طريقة أدائه، ارتبط في بعض صوره بخصائص لغوية عُرفت عند طوائف من العرب. وهذا يفسر تعدد الأوجه التي نقلها علماء اللغة والقراءات، ويجعل هذا المثال شاهدًا مناسبًا على التداخل بين العامل الصوتي والعامل اللهجي في تفسير وجوه الأداء.

استند الكسائي -وفقاً لما أورده النحاس- في تعليل كسر الهاء إلى مبدأ الإتباع الحركي للياء السابقة لها، وهو تعليلٌ يجد مسوغه في الدرس الصوتي الحديث ضمن مفهوم "المماثلة الصوتية"؛ حيث تتقارب الكسرة والياء في التجانس بين الحركة وحرف المد المماثل لها. وتتجلى هذه الظاهرة بوضوح في قراءة (عَلَيْهِمْ) بكسر الهاء وإسكان الميم؛ إذ ذهب النحويون -تبعاً للكسائي- إلى أن كسر الهاء جاء استجابةً لأثر الياء السابقة؛ نظراً لما يجمع الكسرة والياء من تجانس صوتي، مما أدى إلى ميل الحركة نحو تحقيق الانسجام الصوتي بين العناصر المتجاورة. ويُعد هذا المثال من أبرز شواهد الإتباع الحركي في الضمائر، حيث تكتسب الهاء حركتها تأثراً بالسمة الصوتية المناسبة لما قبلها.

يمكن تفسير إثبات الواو في هذا الوجه في ضوء ظاهرة إشباع الضمة، إذ ترتبط الضمة بالواو ارتباطاً وثيقاً نظراً للتجانس الصوتي بينهما. وقد نُسب هذا الوجه إلى بيئات لغوية محددة، مما يبرز تداخل العوامل الصوتية مع العوامل اللهجية في تعليله.

وعلى صعيد آخر، تمثل قراءة "عليهمو" بإثبات الواو بعد الميم اتجاهاً متميزاً في الأداء الصوتي؛ حيث تميل بعض اللهجات إلى الإشباع في حالتي الوقف والوصل، فتظهر الواو نتاجاً لامتداد حركة الضمة على الميم، وهو وجه نُسب إلى أهل الحجاز ومن جاورهم من فصحاء اليمن. وفي السياق ذاته، تأتي قراءة "عليهمي" بإثبات الياء بعد كسر الهاء لتمثل نظيراً لذلك في جهة الكسر، حيث نشأت الياء من إشباع الكسرة وتحقق التجانس الصوتي لها.

ويُلاحظ أن اختلاف هذه اللغات يدور حول محورين صوتيين هما: المجانسة بين الحركات والحروف اللينة، والتخفيف في النطق؛ فالكسرة تجانس الياء، والضمة تجانس الواو، ومن ثم نشأت صور متعددة للضمير بحسب ما مالت إليه القبائل العربية من تحقيق لهذا الانسجام.

تُظهر هذه الأوجه أن تباين الأداء في ضمير الجمع «عليهم» يمكن تعليله في ضوء الظواهر اللغوية العربية التي نقلها علماء القراءات واللغة، إذ يرتبط جانب من هذا الاختلاف بالمجاورة الصوتية، وبميل المتكلم إلى إحداث المجانسة بين الحركات وحروف المد ، ومما تقدم يتضح أن القراءات القرآنية لم تخرج عن سنن العرب في لسانها، بل صانت وجوهاً لهجية فصيحة متعددة، كان فيها «الإتباع الحركي» أحد العوامل الصوتية المؤثرة في ظهور تلك الوجوه. وعليه، يُعد ضمير الجمع «عليهم» نموذجاً بارزاً لدراسة ظاهرة الإتباع الحركي في الضمائر؛ لما يتضمنه من تحولات بين الضم والكسر والإشباع والحذف، وفقاً للمجاورة الصوتية وتنوع اللهجات العربية.

ثانياً : الإتباع في هاء الضمير المتصل

وورد الإشباع في حركة الضمير على الضمائر المتصلة بالأفعال ، من ذلك ما ذكره الفرّاء بقوله : فإنَّ من العرب من يجزم الهاء إذا تحرَّك ما قبلها ، فيقول : (ضربته ضربًا شديدًا) ، أو يترك الهاء إذا سكنها ، وأصلها الرفع بمنزلة رأيتهم وأنتم ، ألا ترى أنَّ الميم سكنت وأصلها الرفع ، ومن العرب من يحرِّك الهاء حركة بلا واو ، فيقول : (ضربتهُ ضربًا شديدًا) ، والوجه الأكثر أو توصلَ بواو ، فيقال : كلمتهو كلامًا على هذا البناء، (الفراء ، د ت ،ج 1ص233) .

ولا يكشف اختلاف هاء الضمير عن تنوع في الرواية فحسب، بل يبرز كذلك أثر البيئة الصوتية في اختيار الحركة وطريقة أدائها. فإسكان الهاء، وتحريكها، وإشباع حركتها بالواو أو الياء، تمثل صورًا مختلفة للتعامل مع العناصر الصوتية المتجاورة. ومن ثم يمكن ربط هذه الأوجه بمبدأ التيسير الصوتي، مع مراعاة أن اختلافها في الاستعمال ارتبط كذلك بتعدد اللغات العربية المنقولة عن القبائل.

وتدل هذه الشواهد على أن اختلاف الأداء في هاء الضمير المتصل لم يكن اختلافًا اعتباطيًا، وإنما استند إلى أصول صوتية معروفة عند العرب، في مقدمتها الإتباع الحركي الذي يهدف إلى تحقيق التجانس بين الحركات المتجاورة والتيسير في النطق. فضم الهاء وإشباعها بالواو في نحو **(ضربتهو)**إنما هو امتداد طبيعي للضمة؛ إذ تولِّد الضمة واوًا تناسبها، كما أن كسر الهاء قد يتولد عنه إشباع بالياء لمناسبة الكسرة لها. أما الاقتصار على تحريك الهاء دون إشباع، أو إسكانها في بعض اللهجات، فيمثل وجوهًا أخرى من وجوه الأداء العربي التي تراعي الخفة والاقتصاد في الجهد النطقي.

ويُفهم من كلام الفراء أن هذه اللغات كانت مستعملة لدى قبائل العرب، وأن الإشباع لم يكن لازمًا في جميع البيئات اللغوية، بل كان تابعًا لما استقر في لهجات القبائل من طرائق الأداء. ومن هنا جاءت القراءات القرآنية معبرة عن هذا التنوع اللهجي، فحفظت صورًا متعددة لأداء الضمير، مع بقائها جميعًا ضمن حدود الفصاحة العربية.

كما يظهر أن الإتباع الحركي في هذا الموضع لا يقتصر على مجرد موافقة الحركة لما قبلها، وإنما يمتد إلى أثرها في الحروف اللينة؛ فالضمة تستدعي الواو، والكسرة تستدعي الياء، وهو ما يعرف عند علماء العربية بإشباع الحركة، حيث تتحول الحركة الطويلة إلى حرف من جنسها، فيتحقق بذلك قدر أكبر من الانسجام الصوتي .

ويكشف هذا المثال عن تداخل بين الإتباع والإشباع في بعض صور الأداء؛ فقد يؤدي تأثر الحركة بما يجاورها إلى إشباعها بحرف من جنسها، غير أن الظاهرتين ليستا مترادفتين؛ فالإتباع يتعلق بتأثر حركة بحركة أو عنصر صوتي مجاور، في حين يرتبط الإشباع بامتداد الحركة حتى تنشأ عنها الواو أو الياء في بعض المواضع.

المطلب الثاني :الإتباع الحركي في الأسماء

أولاً : الإتباع في بنية الاسم الواحد

ومن الإتباع (الكسري) في قوله تعالى:(ثمَّ لنحضِرنَّهم حول جهنَّمَ جِثِيًّا) (مريم ، 68) ، إتباعًا لكسرة الياء، (الزجاج ، 1988م ،ج 3ص339 ، النحاس ، 1988م،ج 3ص23)، وهي عند مكي قراءة جماعة من القراء للخفة والمجانسة، (القيسي ، 1975،ج 2ص457) ، وهو ما سماه بعض المحدثين، (أنيس ، 2003م ،ص 97) ، (الانسجام الصوتي) ، لأنَّ فاء (فَعِلَ ، و فعيل) كسرت مجانسة لكسـرة العين والياء التي بعدها.

يُبرز هذا المثال تأثُّر الحركة الأولى بالحركة اللاحقة لها؛ إذ جاءت الكسرة متناغمة مع نظيرتها في البنية الموالية. ويتميز هذا الموضع عن ظاهرة التخفيف العامة؛ إذ يكشف الشاهد عن نزوع الحركة السابقة نحو مماثلة الحركة اللاحقة، مما يجعله نموذجاً جلياً على ظاهرة "الإتباع الرجعي" في الكلمة الواحدة. ويُلاحظ وجود عاملٍ مشتركٍ ينتظم معظم هذه الأمثلة، يتمثل في تأثّر الحركة بما يجاورها سعياً لتحقيق المجانسة الصوتية، وهو ما يفسر شيوع تعليل النحاة القدماء لها بمفهومي التخفيف والإتباع. كما أن تباين آرائهم في تقويم بعض هذه الشواهد لا ينفي فصاحتها، بل يعكس تفاوت مناهجهم في الاحتجاج، وتراوحهم بين الأخذ بالرواية، أو مراعاة القياس، أو تغليب شيوع الاستعمال.

واشترط القدماء في هذا النوع من الإتباع أن يكون ثانيه صوتًا حلقيًا ، نحو: بِئِس ، لِعِب، وشِعير، وهو ما نسمعه اليوم في زماننا في كثير من اللهجات المعاصرة من نطق كِبير ، وبِعير ، ونِظيف ، بكسر أولها، وتشير بعض الدراسات اللهجية الحديثة إلى استمرار هذا النمط في عدد من البيئات العربية المعاصرة، (سيبويه ، 1988م ،ج 4ص107-108).

وهذا الإتباع عند سيبويه " لغة جيدة "، (سيبويه، 1988م ،ج 4ص384-385)، ولعلَّ هذه اللهجة كانت شائعة عند أكثر العرب ، فلذلك رآها سيبويه جيدة ، والمألوف عند بني تميم جنوحهم إلى الإتباع الكسري، وأنَّ حركة الكسرة قوية مؤثرة في لغتهم، (المطلبي ، 1978م،ص 126) .

وتؤكد هذه الشواهد أن الإتباع الكسري يُعد من أبرز مظاهر الانسجام الصوتي في العربية، إذ تميل الكسرة إلى التأثير في الحركة السابقة لها، فتجذبها إلى جنسها طلبًا لسهولة الانتقال بين الأصوات وتقليل الجهد العضلي المبذول في النطق. ولهذا علّل علماء العربية هذه الظاهرة بالتخفيف والمجانسة، بينما يفسرها المحدثون بقانون الانسجام الصوتي الذي يقضي بتقارب الصفات الحركية داخل البنية الواحدة.

كما يظهر أن هذا الإتباع لم يكن مقصورًا على الاستعمال اللهجي، بل وجد طريقه إلى بعض القراءات القرآنية المتواترة والشاذة، مما يدل على أنه ظاهرة لغوية أصيلة لها جذور في كلام العرب، وليست مجرد تطور صوتي طارئ. ومن هنا استند أئمة القراءات والنحو إلى هذه اللغات في توجيه كثير من الأوجه القرآنية، وعدّوها من سنن العرب الموثوق بفصاحتها.

ويكشف اشتراط القدماء وقوع الإتباع مع الأصوات الحلقية عن ملاحظتهم الدقيقة للبيئة الصوتية المؤثرة في نشوء الظاهرة، وإن كانت الشواهد اللهجية والقراءات تدل على أن الإتباع قد يتجاوز هذا القيد في بعض المواضع تبعًا لاختلاف البيئات اللغوية. وهذا يبين أن الإتباع ليس قاعدة مطردة، وإنما هو نزعة صوتية يغلب ظهورها كلما توافرت دواعي المجانسة بين الأصوات.

ولا يخفى أن بقاء هذه الظاهرة في عدد من اللهجات العربية المعاصرة، كما في نطق **كِبير** و**بِعير** و**نِظيف**، يمثل امتدادًا تاريخيًا لظاهرة قديمة أثبتتها القراءات القرآنية والنصوص اللغوية، وهو ما يعزز الرأي القائل باستمرار كثير من الظواهر الصوتية العربية عبر العصور، مع اختلاف درجات شيوعها بين البيئات اللغوية المختلفة .

ثانياً : الإتباع في الصفات والأسماء المركبة صوتيًا

في قوله تعالى: ﴿وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ [الدخان: 54]، أورد النحاس عن الفراء والأخفش ما يفيد بأن بعض العرب يقولون: «بِحِيرٍ عِينٍ» على سبيل إتباع حركة الأول للثاني. ويُستشهد على ذلك بما روي في قولهم: «ارْجِعْنَ مَأْزُورَاتٍ غَيْرَ مَأْجُورَاتٍ»، حيث يُعدُّ «مَوْزُورَاتٍ» هو الوجه الفصيح البيّن (الأخفش، 1985م،ج 2ص691 ، النحاس، 1988م،ج 4ص137) .

ويمكن تأويل هذا التوجيه اللغوي في ضوء الدرس الصوتي الحديث؛ إذ يُصنَّف تأثر العنصر الصوتي السابق باللاحق ضمن ظاهرة التأثر الرجعي (Regressive Assimilation) (الراجحي، 1999م، ص 150). وتُظهر هذه الرواية أن ظاهرة الإتباع لم تقتصر على الحركات فحسب، بل امتد أثرها ليشمل البنية الصوتية للكلمات؛ حيث تكيَّفت حركة المقطع الأول تبعاً لما يليه، فانتقلت الضمة في «حُور» إلى الكسرة في «حِير»؛ تأثراً بكسرة العين في الكلمة الثانية، وهو ما يُحقق قدراً أكبر من التجانس الصوتي بين الحركات المتتابعة. وبذلك، يتسق تعبير النحاس «إتباع الأول للثاني» مع ما يقرره الدرس الصوتي الحديث في وصفه للتأثر الرجعي، الذي يكتسب فيه الصوت السابق خصائص الصوت اللاحق.

ويلاحظ أن هذا الإتباع لا يغيّر الدلالة المعجمية للكلمة، وإنما يقتصر أثره على الجانب الصوتي، مما يدل على أن الدافع إليه هو تحسين الأداء وتحقيق الانسجام بين الأصوات، لا إحداث فرق في المعنى. ولذلك عدّه اللغويون من اللغات العربية الفصيحة التي جرت عليها بعض القبائل، واستشهدوا بها في تفسير الظواهر الصوتية الواردة في القرآن الكريم.

كما تكشف هذه الشواهد عن دقة ملاحظات علماء العربية؛ إذ أدركوا أثر الأصوات اللاحقة في الأصوات السابقة، وإن اختلفت مصطلحاتهم عن مصطلحات الدرس اللساني الحديث. فما عبّر عنه القدماء بالإتباع أو المجانسة، يلتقي في جوهره مع مفهوم التأثر الرجعي عند المحدثين، الأمر الذي يؤكد أن التحليل الصوتي العربي القديم قد سبق إلى رصد كثير من الظواهر التي أصبحت فيما بعد من مباحث علم الأصوات الحديث.

ومن ثم فإن ورود هذه اللغة في كتب النحو والقراءات لا يراد به إثبات وجه من وجوه القراءة فحسب، وإنما الاستدلال على أصالة ظاهرة الإتباع في العربية، وأنها تمثل اتّجاهاً صوتيًا متكرراً تتفاوت درجات ظهوره بحسب طبيعة الأصوات المتجاورة واختلاف البيئات اللهجية، وهو ما يفسر تعدد صور الأداء مع بقاء الأصل اللغوي واحدًا.

ثالثاً : الإتباع في الأسماء ذات الحركات المتجاورة

ومن الإتباع قراءة أهل الكوفة (فلإِمِّه الثلث) (النساء، 11)، وهي لغة حكاها سيبويه، قال الكسائي : " هي لغة كثير من هوازن وهذيل "، (الكسائي ، 1998م،ص 54)، وهو باب سماه ابن جني (هجوم الحركات على الحركات من غير قياس)، قال : فهجمت فيه كسرة الإتباع على ضمة الإعراب فابتزتها موضعها ، فهذا شاذ لا يقاس عليه، (ابن جني، 1999م،ج 3ص143) ،وقال الزمخشري (- 537 هـ): بكسر الهمزة إتباعًا للجرَّة ، (الزمخشري، د ت ،ج 1ص508) ، وقال النحاس : وبنو تميم يقولون: رِحيم ، ورِغيف ، وبِعير (النحاس، 1988م ،ج1ص168)، وهذا جائز، (الصقلي ، 1966م ،ص 275) ، وسائر العرب يقولون : رَحيم ، ورَغيف ، وبَعير بالفتح .

ومن أمثلة الإتباع ما ذكره النحاس ،عن قوم من بني تميم ، وبني أسد أنَّهم يضمّون الساكن إذا كانت الهمزة مضمومة ، فيقولون : هذا الخبوءُ ، كما روي عن بني تميم أنَّهم يقولون: هذا الرِّدي ، وهذا كله لغات عنده ، (النحاس ، 1988م ،ج 3ص208).

تُفصح قراءة «فَلِإِمِّهِ الثُّلُثُ» عن تباينٍ جليٍّ في اتجاهات علماء العربية حيال ظاهرة «الإتباع»؛ إذ عالجها ابن جني بوصفها خروجاً عن سنن القياس، مُدرجاً إياها ضمن المواضع التي لا يُقاس عليها، بينما ذهب الزمخشري والنحاس إلى إثباتها بوصفها لغةً عربيةً فصيحةً مستندةً إلى السماع.

وبناءً عليه، فإن جوهر الخلاف بينهم لا ينصبُّ على ماهية الإتباع بوصفه ظاهرةً صوتيةً، بل على موقعه من ميزان القياس والاحتجاج النحوي؛ مما يُبرز ضرورة الفصل بين التوصيف الصوتي للظاهرة وبين تقويمها وفق المعايير النحوية والصرفية.

وتُدلل هذه الشواهد على أن الإتباع في الأسماء ذات الحركات المتجاورة يُمثّل تجلّياً واضحاً لنزوع العربية نحو التجانس الصوتي، حيث تفرض الحركة الأقوى أو الأكثر ملاءمةً نفوذها على الحركة المجاورة لها، لتجذبها نحو سياقها تحقيقاً للانسجام الأدائي.

ويتبدى ذلك جلياً في قراءة «فَلِإِمِّهِ» بكسر الهمزة، حيث استطاعت كسرة الإتباع أن تزيح الضمة الأصلية، وهو ما صوّره ابن جني بعبارته الدقيقة: «هجمت كسرة الإتباع على ضمة الإعراب»، في إشارةٍ إلى هيمنة الحركة الأقوى على ما جاورها.

وتُبين تحليلات ابن جني والزمخشري والنحاس إدراكاً عميقاً لدى علماء العربية بأن منشأ هذه الظاهرة صوتيٌّ محض، وإن تفاوتت رؤاهم في تفسيرها؛ فبينما نحا ابن جني منحىً تقييدياً عدّها معه من الشواذ التي لا يُقاس عليها، نظر إليها الزمخشري والنحاس بوصفها لغةً عربيةً معتبرةً ثبتت بالسماع عن قبائل فصيحة، مما يعكس تباين مناهجهم بين تغليب القياس الصرفي والاحتجاج بالرواية اللغوية.

كما تشير نسبة هذه الأنماط اللغوية إلى قبائل كتميم، وهوازن، وهذيل، وبني أسد، إلى كون الإتباع ظاهرةً لهجيةً واسعة النطاق، تفاوتت درجات شيوعها بين القبائل، وتأتي القراءات القرآنية لتؤكد أصالة هذه اللغات وتجذرها في العربية، لا خروجها عن نظامها.

ومن الملاحظ أن الإتباع لا ينحصر في الكسر فحسب، بل يتعداه إلى الضم، كما في نحو «الخُبُؤُ»، حيث أثّرت الضمة اللاحقة في الحركة السابقة، مما يبرهن على أن الإتباع الحركي قانونٌ عامٌّ يرتكز على مبدأ المجانسة بين الحركات، بصرف النظر عن نوع الحركة المؤثرة. وهذا يتسق مع ما يقرره علم الأصوات الحديث من ميل الحركات المتجاورة إلى التقارب في صفاتها؛ تيسيراً للنطق وتحقيقاً للانسجام

المطلب الثالث: الإتباع الحركي في الحروف

لم يقتصر الإتباع الحركي على الضمائر، بل شمل الأسماء والحروف، فظهرت له صور متعددة اختلفت باختلاف البنية الصرفية والسياق الصوتي. وقد حفظت القراءات القرآنية عددًا من هذه الصور، التي مثلت شاهدًا مهمًا على مرونة النظام الصوتي للعربية، وعلى ما بين لهجاتها من تنوع في طرائق الأداء.

ومن الإتباع الحركي ما يتعلَّق بالحروف ، إذ وردت ثلاث لغات في قراءة (الحمد لله) (الفاتحة، 1)، نسبها الفراء، (الفراء ، د ت ،ج 1ص3) إلى أهل البدو، وهي:

1. الحمدَ لَلّه.
2. الحمدُ لُله.
3. الحمدِ لِله.

ونسب الشيخ الطوسي، (الطوسي ، 1957م،ج 1ص34) ، (-460هـ) إلى تميم بالكسر، ونُسب الرفع إلى بعض ربيعة، (الأنباري ، 1959م ،ص 202) ، ولم ينسب الزجاج لغات هذه القراءات ، ولكنَّه حاول تقويمها ، فذهب إلى أنَّها لغة من لا يلتفت إليه، ولا يتشاغل بالرواية عنه، وإنَّما تشاغلنا نحن برواية هذا الحرف لنحذِّر الناسَ من أن يستعملوه، أو يظنَّ جاهل أن يجوزَ في كتاب الله (عزَّ وجل) أو في كلام، ولم يأتِ لهذا نظير في كلام العرب، ولا وجه له، (ابن جني ، 1999م ،ج 2ص147) .

واختار الزجاج، القراءة برفع (الحمد) لأنَّ السنَّة تبيح في القرآن، ولا يلتفت فيه إلى غير الرواية الصحيحة التي قرأ بها القرّاء المشهورون بالضبط والثقة ووصف هذه القراءة بأنَّها أحسن وأبلغ في الثناء على الله عزَّ وجل، (الزجا ، 1989م ،ج 1ص54) .

والزجاج في هذا يتابع البصريين الذين عدّوا قراءة (الحمدَ لَله) و (الحمدِ لِله) شاذتين في الاستعمال، وضعيفتين في القياس، (الأنباري ، 1961م،ج 2ص739) ، بينما هما عند النحاس – وهو بصري أيضًا – موافقتان للهجات العرب ، ونسب كل قراءة إلى قرّائها ولهجاتها على الشكل الآتي :

1. (الحمدَ لَله): قرأ بها ابن عيينة ورؤبة بن العجاج، على المصدر، وهي لغة قيس، والحارث بن سامة .
2. (الحمدُ لُله): والرفع أجود من جهة اللفظ والمعنى، قرأ بها ابراهيم بن أبي عبلة ، وهي لغة بعض بني ربيعة .
3. (الحمدِ لِله) : والكسر لغة تميم ، قرأ بها الحسن، (النحاس ، 1988م ،ج 1ص169ــ 170) .

والقراءتان الثانية والثالثة لغتان معروفتان، وقراءتان موجودتان في كل واحدة منها علَّة، (النحاس ، 1988م ،ج 1ص170) وذكرها الفراء، (الفراء ، د ت ،ج 1ص3) بمطابقة كلام العرب، واتفق ابن خالويه، (ابن خالويه ، د ت ،ص 29ـ 0)، مع النحاس في ذكر قرّائها، والدفاع عنها، وهي جائزة عند مكي القيسي، (القيسي ، 1975،ج 1ص68) .

وتدل هذه الشواهد على أن الإتباع الحركي في الحروف يمثل أحد المظاهر البارزة لتأثر الأدوات بما يجاورها من الحركات، وتظهر في هذه الأوجه علاقة بين حركة آخر كلمة «الحمد» وحركة اللام في لفظ الجلالة؛ إذ تتغير حركة اللام تبعًا للحركة السابقة، فتظهر صور الفتح والضم والكسر، تبعًا للحركة السابقة. ويحقق هذا التوافق قدرًا من الانسجام الصوتي بين الكلمتين، وهو ما يفسر شيوع هذه اللغات في عدد من القبائل العربية.

كما تكشف أقوال العلماء عن اختلاف مناهجهم في تقويم هذه اللغات؛ ويظهر من موقف الزجاج في هذا الموضع أنه شدد في قبول الوجه القرائي الذي يُقرأ في القرآن، في حين اتسع غيره من اللغويين في الاستشهاد باللغات العربية ولو لم تكن جميعها من القراءات المتواترة ، وعدّ غيره خارجًا عن الاختيار في التلاوة، وإن ثبت في كلام بعض العرب.

أما النحاس والفراء وابن خالويه ومكي القيسي، فقد توسعوا في الاحتجاج باللهجات العربية، فعدّوا هذه الأوجه لغات فصيحة نقلت عن قبائل معروفة، وأجازوا الاستشهاد بها في الدراسة اللغوية، وإن لم تكن جميعها من القراءات المتواترة.

ويظهر من ذلك أن موطن الخلاف بين العلماء لم يكن في ثبوت هذه اللغات، وإنما في مدى صلاحيتها للاحتجاج في القراءة القرآنية؛ إذ فرّقوا بين ما يثبت بالرواية المتواترة في الأداء القرآني، وبين ما يثبت بالسماع في العربية بوصفه لغة من لغاتها. ومن هنا فإن اختلافهم يعكس تباينًا في مناهج الاحتجاج أكثر مما يعكس إنكارًا للظاهرة الصوتية نفسها.

ومن منظور علم الأصوات الحديث، تمثل هذه اللغات صورة واضحة من صور الانسجام الصوتي، إذ تؤثر الحركة السابقة في الحركة اللاحقة، فتقربها من جنسها طلبًا للخفة وسهولة الانتقال بين المقاطع الصوتية. وهذا ما اصطلح عليه القدماء بالإتباع، وإن اختلفت عباراتهم في وصفه، مما يدل على دقة ملاحظتهم للظواهر الصوتية في العربية.

وعليه، فإن الإتباع في الحروف لا يخرج عن كونه ظاهرة صوتية أصيلة في العربية، حفظتها كتب القراءات والنحو واللغة، وأسهمت في تفسير عدد من الأوجه القرائية، كما كشفت عن أثر التنوع اللهجي في توجيه الأداء القرآني، مع بقاء القراءة المتواترة هي الأصل الذي يلتزم في التلاوة، وتبقى بقية اللغات شواهد على ثراء العربية واتساع طرائق الأداء فيها.

ويظهر من استقراء صور الإتباع الحركي في القراءات القرآنية أن هذه الظاهرة لم تكن استعمالًا عارضًا، بل مثلت نسقًا صوتيًا مطردًا في عدد من اللهجات العربية، انعكس أثره في وجوه الأداء القرآني. كما تبين أن اختلاف صور الإتباع لم يكن ناشئًا عن اضطراب لغوي، وإنما عن تنوع الأداء العربي الذي تلقته الأمة بالقبول، وهو ما يمهد لدراسة الأسس التي اعتمدها العلماء في توجيه هذه الظاهرة، وبيان أثر التفسير الصوتي والتنوع اللهجي في فهمها.

النتائج

بعد استقراء نصوص الإتباع الحركي في القراءات القرآنية، وتحليلها في ضوء آراء اللغويين والقراء والدراسات الصوتية، أمكن الوقوف على جملة من النتائج التي تكشف عن خصائص هذه الظاهرة، وتبرز أثرها في توجيه القراءات وصلتها باللهجات العربية.

1. يُعدُّ الإتباع الحركي ظاهرةً صوتيةً أصيلة في العربية، تقوم على مبدأ الانسجام بين الحركات، وتهدف إلى تحقيق خفة النطق وتقليل الجهد المبذول في الأداء.
2. كشفت القراءات القرآنية عن صور متعددة للإتباع الحركي، مما يدل على أنها تمثل جانبًا مهمًا من التنوع اللهجي العربي الذي نزل به القرآن الكريم.
3. تبين أن اختلاف صور الإتباع الحركي في القراءات يرتبط باختلاف اللهجات العربية، وأن كل وجه قرائي يستند إلى أصل لغوي معتبر عند قبيلة أو أكثر من قبائل العرب.
4. أظهرت الدراسة أن علماء العربية والقراء أولوا الإتباع الحركي عناية كبيرة، ففسروه في ضوء المماثلة الصوتية، وربطوه بالتيسير في النطق وتحقيق الانسجام بين الحركات.
5. اتفقت تفسيرات اللغويين القدماء في كثير من جوانبها مع ما تقرره الدراسات الصوتية الحديثة بشأن ظاهرة المماثلة الصوتية(Assimilation) ، مما يؤكد عمق التحليل الصوتي في التراث العربي.
6. بينت الدراسة أن الإتباع الحركي لا يمثل خروجًا عن الأصل اللغوي، بل هو وجه من وجوه التنوع الصوتي المشروع الذي أقرته القراءات القرآنية المتواترة.
7. أسهمت كتب القراءات، وإعراب القرآن، وكتب اللغة والنحو في حفظ المادة اللغوية المتعلقة بالإتباع الحركي، مما يجعلها مصادر رئيسة لدراسة الظواهر الصوتية في العربية.
8. اتضح أن بعض اللهجات العربية – ولا سيما لهجات تميم وأسد وهذيل وقيس وبعض ربيعة وأهل الحجاز – كانت أكثر ميلًا إلى الإتباع الحركي من غيرها، بحسب ما نقلته المصادر اللغوية والقرائية.
9. تؤكد الدراسة أن القراءات القرآنية تمثل مصدرًا موثوقًا لإعادة بناء الخصائص الصوتية للهجات العربية القديمة، وأنها تقدم شواهد لغوية لا غنى عنها في الدراسات اللسانية.
10. أبرزت الدراسة أن الإتباع الحركي يؤدي وظيفة صوتية تتمثل في تحقيق الاقتصاد في الجهد النطقي، مع المحافظة على سلامة البنية اللغوية والمعنى.

التوصيات

يوصي البحث بما يأتي:

1. توجيه مزيد من الدراسات إلى الظواهر الصوتية في القراءات القرآنية؛ لما تمثله من مادة علمية ثرية في الدرس اللغوي.
2. إعداد دراسات مستقلة تتناول بقية أنواع الإتباع الصوتي، كالإتباع الصامت والإتباع بين الكلمات، وربطها بالقراءات القرآنية.
3. الإفادة من مناهج علم الأصوات الحديث في تحليل الظواهر الصوتية الواردة في كتب التراث، مع المحافظة على أصالة التفسير العربي.

4. تشجيع الدراسات المقارنة بين اللهجات العربية القديمة واللهجات العربية المعاصرة؛ للكشف عن استمرار بعض الظواهر الصوتية وتطورها.
5. العناية بتحقيق كتب القراءات واللغة التي تضم شواهد صوتية ولهجية، وتيسير الإفادة منها في الدراسات اللغوية الحديثة.
6. إدراج الدراسات الصوتية المستندة إلى القراءات القرآنية ضمن البرامج الأكاديمية في أقسام اللغة العربية والقراءات؛ لما لها من أثر في تنمية البحث اللغوي.
7. الإفادة من التقنيات الصوتية الحديثة في دراسة الأداء القرائي وتحليل الظواهر الصوتية المرتبطة بالقراءات القرآنية.
8. الدعوة إلى إعداد معجم وصفي للظواهر الصوتية في القراءات القرآنية، يجمع شواهدها ويبين توجيهاتها اللغوية والصوتية واللهجية، ليكون مرجعًا للباحثين في الدراسات القرآنية واللسانية.

المصادر والمراجع

[1] الأخفش الأوسط، سعيد بن مسعدة .(1985) .معاني القرآن (عبد الأمير الورد، محقق، ط1). بيروت، لبنان: عالم الكتب.

[2] أبو شامة المقدسي، عبد الرحمن بن إسماعيل. (1349هـ) .إبراز المعاني من حرز الأماني .القاهرة، مصر: مطبعة مصطفى البابي الحلبي.

[3] أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف .(1998) .ارتشاف الضرب من لسان العرب (رجب عثمان محمد، محقق؛ رمضان عبد التواب، مراجع). القاهرة، مصر: مطبعة المدني.

[4] ابن الجزري، محمد بن محمد. (د.ت) .النشر في القراءات العشر (علي محمد الضباع، محقق). بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.

[5] ابن جني، عثمان بن جني .(1999) .الخصائص (محمد علي النجار، محقق، ط4). القاهرة، مصر: دار الكتب المصرية.

[6] ابن خالويه، الحسين بن أحمد. (د.ت) .إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم .بغداد، العراق: دار التربية للطباعة.

[7] ابن فارس، أحمد بن فارس .(1977) .الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها (السيد أحمد صقر، محقق). القاهرة، مصر: مطبعة عيسى البابي الحلبي.

[8] ابن هشام الأنصاري، عبد الله بن يوسف .(1998) .مغني اللبيب عن كتب الأعاريب (أميل بديع يعقوب، وحسن حمد، محققان، ط1). بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.

[9] الجندي، أحمد علم الدين .(1978) .اللهجات العربية في التراث .ليبيا–تونس: الدار العربية للكتاب.

[10] الخليل، عبد القادر مرعي .(1993) .المصطلح الصوتي عند علماء العربية القدماء في ضوء علم اللغة المعاصر (ط1). الأردن: منشورات جامعة مؤتة.

[11] الزجاج، إبراهيم بن السري .(1988) .معاني القرآن وإعرابه (عبد الجليل عبده شلبي، محقق، ط1). بيروت، لبنان: عالم الكتب.

[12] سيبويه، عمرو بن عثمان .(1988) .الكتاب (عبد السلام محمد هارون، محقق، ط3). القاهرة، مصر: دار غريب.

[13] السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر .(1958) .المزهر في علوم اللغة وأنواعها (محمد جاد المولى وآخرون، محققون، ط4). القاهرة، مصر: مطبعة عيسى البابي الحلبي.

[14] شاهين، عبد الصبور .(2000) .القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث (ط2). القاهرة، مصر: مكتبة الخانجي.

[15] الثعالبي، عبد الملك بن محمد .(1954) .فقه اللغة وسر العربية (مصطفى السقا وآخرون، محققون، ط2). القاهرة، مصر: مطبعة مصطفى البابي الحلبي.

[16] الفارسي، الحسن بن أحمد .(1981) .التكملة (كاظم بحر المرجان، محقق). الموصل، العراق: مطابع مديرية دار الكتب للطباعة.

[17] القيسي، مكي بن أبي طالب .(1984) .الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها (محيي الدين رمضان، محقق، ط3). بيروت، لبنان: مؤسسة الرسالة.

[18] المبرد، محمد بن يزيد .(1994) .المقتضب (محمد عبد الخالق عضيمة، محقق). القاهرة، مصر: مطابع الأهرام التجارية.

[19] المطلبي، غالب فاضل .(1984) .في الأصوات اللغوية: دراسة في أصوات المد العربية .بغداد، العراق: دار الحرية.

[20] النحاس، أحمد بن محمد .(1988) .إعراب القرآن (زهير غازي زاهد، محقق، ط3). بيروت، لبنان: عالم الكتب.

[21]حسام الدين، كريم زكي .(2000) .أصول تراثية في اللسانيات الحديثة (ط3) .

Disclaimer/Publisher's Note: The statements, opinions, and data contained in all publications are solely those of the individual author(s) and contributor(s) and not of **JSHD** and/or the editor(s). **JSHD** and/or the editor(s) disclaim responsibility for any injury to people or property resulting from any ideas, methods, instructions, or products referred to in the content.